سلافة العامري

الجذور الأسلامية لمذهب الأشراق

ان المطلع على معظم ما كتبه الباحثون في نتاج السهروردي من مستشرقين وعرب ـ وهم قلائل على اية حال ـ يشعر بثقل المسؤولية اذا ما اراد ان يعطي حكما جديدا في هذا النتاج . لا سيما اذا طالعه رأي كرأي الاستاذ كوربان الذي يرى « ان الشرح الكامل لانتاج السهروردي في مجموعه لا يفترض معرفة المؤلفات اليونانية فحسب ، وكيفية انتقالها الى العرب عن طريق الترجمات السريانية بل وايضا يفترض معرفة الادب الابستاقي عامة والادب الفهلوي المتاخر ، ومثل هذا الشرح او التحليل يجب عليه ايضا ان يحسب حسابا لما نعرفه عن اللاهوت والليتورجيا الفلكية عند الصابئة ، لان بعض التراتيل التي وجهها السهروردي الى ملائكة الافلاك في مماثلة ظاهرة معهما (١) كما يجب اخيرا ان نحلل حالة الفكر الفلسفي في الاسلام بعد تأثير نقد الغزالي ، وهو نقد لعله ان يكون اشد ايغالا من نقد كنت ، لو جاز لنا ان نقارن بينهما ، فان فعلنا هذا كله ، نكون قد جمعنا مواد ذات اهمية كبرى بيد ان الغاية الاخيرة التي هدف اليها السهروردي والقصد الذي يجعل معنى كل هذه العناصر في وحدتها حاضرا بينا لن يكون قد ظهر لنا بعد ، فهذا القصد يجب ان نبحث عنه في اتجاه آخر » (٢) .

والمعرفة بكل هذه المناهل الثقافية التي اشار اليها كوربان قد تقود الى القول بان مذهب السهروردي الاشراقي ما هو الا مذهب تلفيقي كما ذهب دي بور (٣) في مقالته عن الاشراقيين وفان دن برغ (٤) في مقالته عن السهروردي ، فالسهروردي في نظرهما لم يذهب في التفتيش عن الحقيقة مذاهب واضحة كما كانت الحال عند الغزالي مثلا ، ولم يتدرج في تناول الافكار والفلسفات السابقة تدرجا منهجيا نستطيع من خلاله ان نتبين سيرة فكرية تامية ، بل ان مذهبه خلافا لذلك يقوم على الجمع والتوفيق بين مذاهب اليونانيين المتاخرين من اتباع افلاطون ومذاهب قدماء فارس وشطائر الكلدان وتعاليم الاسلام والصابئة .

وفي الوقت نفسه نرى ان اميل معلوف يذهب في الرد على القائلين بهذا الرأي الى « ان ما يقال من ان اعمال السهروردي انتقائية انما قيل قبلا في اعمال آباء الكنيسة امثال اورجنس (ت ٢٥٤ م) وغريغوريوس ينصص Gregory of yangssa (ت ٣٩٤ م) لان مؤلفاتهم تضمنت عبارات نقية مستقاة من الافلاطونية والروافيةوغيرهما من المدارس ذات الافكار المضطربة . وقد نبه باحث حصيف هو Werner Jeager الى ان عقائد غريغوريوس وان كانت تعتمد مباحث الاقدمين فينبغي الا توسم بميسم الانتقاء « فلفظة انتقاء يصح ان تنعت اتجاها فكريا لم يعرف الا الجمع ولم يوفق الى الابتكار، لذلك تضمنتهذه اللفظة معنى تحقيريا لا ينطبق على فلسفة السهروردي ولا على اتباعه الاشراقيين ، فهؤلاء وان نهلوا من مذاهب متفرقة مادة لفكرهم ، قد ابدعوا فلسفة ظلت عظيمة الاثر في تعاليم الشيعة في ايران الى يومنا هذا » (٥)

ولئن اختلف الباحثون حول كون « المذهب الاشراقي » الذي وضع اسمه السهروردي مذهبا تلفيقيا او مذهبا مبتكرا الا انهم اتفقوا فيما يبدو على انه يستند في اصوله الى مناهل شرقية فارسية وغربية يونانية على السواء . وهذا المذهب في نظرنا ينطلق بالدرجة الاولى من جوهر التعاليم الاسلامية التي تقوم على اساس وجود الله تعالى ووحدانيته ، وعلى الايمان بنبوة محمد عليه السلام ، وبالبعث والعقاب والثواب . كما ان للآيات القرآنية حضورا مباشرا وحسيا في معظم مؤلفات السهروردي (٦) الذي يدعو السالك بقوله : « وعليك بقراءة القرآن مع وجد وطرب وفكر لطيف ، واقرأ القرآن كانه ما انزل الا في شانك » .

* * *

لا شك ان مذهب السهروردي من خلال مؤلفاته يمثل فكرا ذا

---

(١) التراتيل المقصودة هي « الواردات والتقديسات » كتاب في النجوم وتقديسها على الطريقة اليونانية كتبها السهروردي على غرار كتاب الفخر الرازي « السر المكتوم في طيات النجوم » وكتاب « غاية الحكيم » للمجريطي ، ويذكر كوربان هذا الكتاب للسهروردي باسم تقديسات الشيخ الشهيد .

(٢) شخصيات قلقة في الاسلام ـ عبد الرحمن بدوي ـ ص ص ٢٠٢ ـ ١٠٣ .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ـ طبعة طهران ـ المجلد الثاني ـ ص ٢١٢ .

(٤) المصدر السابق ـ المجلد الثاني عشر ـ ص ٢٩٨ .

(٥) كتاب اللمحات للسهروردي ـ تحقيق اميل معلوف ـ بيروت ـ سنة ١٩٦٩ ـ ص ص ١٥ ـ ١٦ .

(٦) راجع : التلويحات ـ نشرة كوربان ، في كل من الصفحات : ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٤، ٩٦، ٩٧ ، ١١٣ . وراجع ايضا المطارحات نشرة كوربان ايضا في كل من الصفحات : ٣٦١ ، ٤١٩ ، ٤٥٢ . وراجع ايضا حكمة الاشراق نشرة كوربان في كل من الصفحات ٢٢١، ٢٢٢ ، ٢٣٠، ٢٤٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

شخصية مميزة في تاريخ الثقافة الاسلامية » . وذلك يقودنا بطبيعة الحال الى طرح السؤال التالي وهو : ما مبلغ علمنا الحقيقي بانشاء مؤلفات السهروردي ؟

هناك ثبت بمؤلفات السهروردي يرجع اليه كل من الشهرزوري (٨) وبروكلمان (٩) وريتر . والثبت الذي يزودنا به ريتر هو ثبت ثمين بثلاث وتسعين رسالة وفيه تحليل ووصف لمخطوطات السهروردي في استانبول . (١٠)

كما ان لدينا ثلاثة تصنيفات لكتب السهروردي ضمن دراسات معاصرة حول المذهب الاشراقي . الاول هو تصنيف ماسينيون (١١) والثاني هو تصنيف كوربان (١٢) والثالث هو تصنيف الدكتور محمدعلي ابوريان (١٣). وهذا الاخير يورد ثبتا باسماء واحد وخمسين مؤلفا يضاف اليها ثمانية عشر شرحا على بعض هذه المؤلفات . والدكتور ابو ريان لم يراع في سرده لاسماء كتب السهروردي اي اعتبار تصنيفي الا حجم الكتاب ، اذ ابتدأ بذكر الكتب الكبيرة . ثم ذكر بعد ذلك الرسائل الصغيرة ، وبعدها الكتب التي يشك الباحثون في نسبتها الى السهروردي .

بينما نجد ان ماسينيون قد افترض في تصنيفه وجود مراحل فكرية عند السهروردي تنفصل الواحدة عن الاخرى ، ومن الجائز انه قد تأثر في تصنيفه بقول السهروردي في مقدمة حكمة الاشراق وهو : « وقد رتبت لكم قبل هذا الكتاب وفي اثنائه عند معاوقة القواطع عنه كتبا على طريقة المشائين ولخصت فيها قواعدهم ، ومن جملتها المختصر الموسوم « بالتلويحات اللوحية والعرشية » المشتمل على قواعد كثيرة ، ولخصت فيها القواعد مع صغر حجمه ، ودونه « اللمحات » وصنفت غيرهما ، ومنها مارتبته في ايام الصبا »(١٤) .

لذلك نجد تصنيف ماسينيون يقوم على ثلاثة مراحل ، فهناك : عهد الشباب وهو العهد الاشراقي ، ثم العهد المشائي ، ثم العهد السينوي الافلاطوني .

بينما نجد أن كوربان قد قسم كتب الشيخ الى اربعة اقسام :

١ ـ المؤلفات الكبرى ، وهي التي تعبر في مجموعها عن المذهب الاشراقي وهي : التلويحات ـ المقاومات ـ المشارع والمطارحات ـ حكمة الاشراق .

٢ ـ المؤلفات الصغرى ، وهي التي تتبع بوجه عام معالم المؤلفات الكبرى ، وهي : الالواح العمادية ـ بستان القلوب ـ هياكل النور ـ اعتقاد الحكماء ـ كلمة التصوف ـ كشف الغطاء ـ اللمحات ـ برتو نامه .

٣ ـ الرسائل ، وهي ذات طابع رمزي تمهد الطريق للسالكين ، ومعظمها باللغة الفارسية ، وهي : عقل سرخ ـ اصوات اجنحة جبرائيل ـ قصة الغربة الغربية ـ كلمات ذوقية ـ لغة النمل ـ مؤنس العشاق ـ رسالة في حالة الطفولية ـ رسالة روزي باجماعت صوفيان ـ رسالة الطير (وهي ترجمة فارسية لرسالة ابن سينا) ـ صفيري سيمورغ .

٤ ـ الواردات والتقديسات ، او تقديسات الشيخ الشهيد ، وهي عبارة عن ابتهالات خاصة يردد الشيخ في كل يوم من ايام الاسبوع ابتهالا معينا منها ، وهذه الابتهالات تحمل في لائحة الشهرزوري الارقام « ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ »

ويلاحظ ان كوربان في تصنيفه هذا قد استند الى حجم الكتاب ايضا، فكتب المجموعة الثانية عبارة عن ابحاث نظرية تتفق مع كتب المجموعة الاولى وليس هناك مبرر لجعلها في مجموعة منفصلة الا صغر حجمها .

وميزة تصنيف كوربان ان هذه الكتب التي اوردها قد ثبتت نسبة معظمها الى المؤلف ، ولم يشك الباحثون الا في رسالة اعتقاد الحكماء ورسالة المعراج ، وبستان القلوب .(١٥) .

وهذه المصنفات التي ذكرها كوربان وعددها اثنان وعشرون مصنفا ، لا يزال قسم كبير منها مخطوطا ومحفوظا في بطون المكتبات . اما المنشور منها فينقسم الى ثلاث فئات :

١ ـ الكتب الكاملة . ٢ ـ اجزاء من كتب . ٣ ـ الرسائل .

الكتب الكاملة :

١ ـ هياكل النور ، نشره محي الدين صبحي الكردي ـ القاهرة سنة ١٣٧٥ هـ .

٢ ـ حكمة الاشراق ، نشره كوربان ـ طهران ، سنة ١٩٥٢ م .

٣ ـ اللمحات ، نشره اميل معلوف ـ بيروت ـ سنة ١٩٦٩ م.

اجزاء من كتب :

نشر هنري كوربان العلم الالهي فقط من الكتب التالية :

١ ـ التلويحات اللوحية والعرشية .

٢ ـ المقاومات .

٣ ـ المشارع والمطارحات .

وضمها في مجلد واحد تحت عنوان : « مجموعة في الحكمة الالهية من مصنفات السهروردي ـ استانبول ـ ١٩٤٥ م .

الرسائل :

١ ـ مؤنس العشاق (نص فارسي) نشر انوشبيس O . Spies دلهي ، سنة ١٩٣٤ م .

٢ ـ اصوات اجنحة جبرائيل (ترجمها عن الفارسية الى العربية بول كراوس ، ونشرها كوربان مع مقدمة في المجلة الاسيوية عدد يوليو سنة ١٩٣٥ م .

٣ ـ لغات موران او لغة النمل (نص فارسي) نشر كوربان ـ مجلة هرمس سنة ١٩٣٩ م .

٤ ـ صفيري سيمورغ (نص فارسي) نشر شبيس وختك S . K . Khattak & O . Spies ضمن كتاب ثلاث رسائل شتوتغارت ـ سنة ١٩٣٥ م . ونشر كوربان ترجمة فرنسية لها في مجلة هرمس ج٣، المجموعة الثالثة ، سنة ١٩٣٩ م .

٤ ـ قصة الغربة الغربية ، مقتبسة عن قصة حي بن يقظان

---

(٨) ثلاث رسائل نشر وترجمة اوتو شبيس وختك ، وفيه النص العربي لترجمة حياة السهروردي بقلم تلميذه الشهرزوري الواردة في كتابه نزهة الارواح .

(٩) تاريخ الادب العربي ـ بروكلمان ـ ج ١ ، ص ص ٤٣٦ ـ ٤٣٨ . الذيل ج ١ ، ص ٧٨١ .

(١٠) A . Ritter , Philogika , IX - Die Vier Suhrawardi I . Shihâb al din .. al - Suhrawardi al Maqtul . 24 . Band ,1937 , Heft - 3 . 4 , P . 270 - 286

(١١) L . Massignon, Recueil de textes inédits concernant L'histoire de la mystique en pays d'Islam . Paris , 1929 . P . 113 .

(١٢) مجموعة في الحكمة الالهية من مصنفات السهروردي ـ المجلد الاول ، المقدمة بقلم كوربان .

(١٣) اصول الفلسفة الاشراقية ـ محمد علي ابو ريان ـ ص ص ٤٣ ـ ٥٧ .

(١٤) حكمة الاشراق ، للسهروردي نشرة كوربان ، ص ١٠ .

(١٥) فيما يتعلق بالشك في بعض مؤلفات السهروردي راجع كتاب اللمحات ـ اميل معلوف ، ص ص ١٣ ـ ٢٤ . وراجع ايضا ، اصول الفلسفة الاشراقية ، ص ٤٩ .

لابن سينا ، نشرهما كوربان ضمن « مجموعة دوم مصنفات شيخ اشراق ... » طهران سنة ١٩٥٢ م .

٦ ـ رسالة في اعتقاد الحكماء ـ نشرها كوربان ضمن المجموعة السابقة سنة ١٩٥٢ .

وهناك رسالة اخرى ، ليست من مؤلفات الشيخ ، وانما ترجمها الى الفارسية وهي رسالة الطير لابن سينا ، وقد نشرها شبيسروختك ضمن كتاب ثلاث رسائل سنة ١٩٣٥ .

* * *

مجموع هذه المؤلفات يسّر للباحثين معرفة اساس المذهب الاشراقي. يقول السهروردي في مقدمة « حكمة الاشراق » :

« وهذا سياق اخر وطريق اقرب من تلك الطريقة (اي طريقة المشائين) وانظم واضبط واقل اتعابا في التحصيل ، ولم يحصل لي اولا بالفكر ، بل حصل بأمر اخر ، ثم طلبت عليه الحجة حتى لو قطعت النظر عن الحجة مثلا ، ما كان يشككني فيه مشكك » (١٦).

فعلى هذا ، تقوم فلسفة السهروردي في مقابل الفلسفة المشائية، وبينما تنتهج الاولى طريق الكشف والذوق يضاف اليها الحجة والبرهان تنتهج الثانية سبيل الاستدلال العقلي والحجج المنطقية فقط.

والبناء الفلسفي للاشراق يقوم على اتخاذ « النور » مبدأ وجوديا اوحد واما الظلام فهو نقيض النور ، فليس ثمة مبدآن متكافئان يصطرعان كما تدعي المانوية « وهذه ليست قاعدة كفرة المجوس والحادماني وما يفضي الى الشرك بالله تعالى وتنزهه » (١٧) .

« والذي يعرض للذهن من هذا التحليل المبدئي ، هو ان الحقيقة هنا تتخذ النور اساسا لها ، فكما يقوم الوجود في المذاهب المادية على اعتبار المادة اساسا للحقيقة الموضوعية ، وعلى اعتبار النفس اساسا ومعيارا للحقيقة عند المدرسة المثالية الذاتية ، والله او الواحد عند المثالية المتعالية ، واتحاد الروح والمادة عند الوجودية المعتدلة التي تتمثل في الارسطية ، فكذلك تتخذ الحقيقة هنا النور اساسا لها ومبدأ مشيدا للوجود » .

ومن ذلك قول السهروردي : « والاختلاف بين متقدمي الحكماء ومتأخريهم انما هو في الالفاظ ، واختلاف عاداتهم في التصريح والتعريض والكل قائلون بالعوالم الثلاثة متفقون على التوحيد ، لا نزاع بينهم في اصول المسائل والمعلم الاول اسطوطاليس وان كان كبير القدر عظيم الشأن بعيد الغور تام النظر لا يجوز المبالغة فيه على وجه يفضي الى الازراء باستاذيه ومن جملتهم جماعة من اهل السفارة والشارعين مثل اغاثاذيمون وهرمس واسقلينوس وغيرهم » (١٨) .

وهذا النص ينطبق على السهروردي بالقياس الى مذاهب المشائين، فالواحد او واجب الوجود يسميه السهروردي « نور الانوار » ، واول صادر عن واجب الوجود وهو المعلول الاول وهو همزة الوصل بين الواحد والفيوضات التالية عند المشائين ، ويسمي السهروردي اول صادر عن نور الانوار باسم « النور الاكرم او النور العظيم » وربما سماه الفهلوية « بهمن » وهذا الصادر الاول لا كثرة فيه اصلا ولا تلحق المادة به من اي وجه .

والموجودات تقسم الى واجبة وممكنة عند المشائين، وعند السهروردي تقسم الى موجودات نورية وموجودات ظلمانية او برازخ ظلمانية .

والمذهب الاشراقي ليس مستقلا عن المذاهب التي سبقته في المحيط العقلي الاسلامي ، والبناء الوجودي للمذهب الاشراقي هو نتيجة لنقد السهروردي لنظرية العقول العشرة من حيث الكم لا من حيث الكيف . (١٩) .

ذلك هو المبدأ الاساسي الذي تقوم عليه فلسفة الاشراق وهو يستخلص من مجموع كتبه النظريه ، اي التلويحات واللمحات والمقاومات والمطارحات وهياكل النور واخيرا حكمة الاشراق ، وفي هذه الكتب لا يظهر اثر الميثولوجية الشرقية الا بشكل سطحي جدا لا يتجاوز ذكر اسماء حكماء الشرق من فرس ومصريين (٢٠) . مع ورود الفاظ مثل النور الشعشعاني ـ النور القاهر ـ الناسوت ـ الرهبوت . بينما يبدو الاثر اليوناني كما عرفناه في المشائية الاسلامية واضحا جدا في الكتب الخمسة الاولى ، اما في « حكمة الاشراق » فيظهر الاثر الشرقي في اتخاذ النور مبدأ للبحث ، كما يظهر في ابراز عالم « المثل المعلقة » (٢١) وهو عالم وسط بين العالم الحسي والعالم العقلي . ويجدر التمييز هنا بين المثل المعلقة عند السهروردي والمثل الافلاطونية التي لا علاقة لها بالمادة اطلاقا . واما الاثر اليوناني فيبدو في حكمة الاشراق من خلال منهج البحث وطريقة الاستدلال .

ويختلف الامر في الرسائل ، اذ ان الميثولوجية الشرقية بينة الاثر سواء في الرموز المستعملة او في البناء القصصي (٢٢). كما نجد في رسالة « مؤنس العشاق » ، وفي « قصة الغربة الغربية » وفي « اصوات اجنحة جبرائيل » ونستثني من الرسائل رسالة في « اعتقاد الحكماء » اذ انها تلتحق بالكتب العقائدية ، فهي عبارة عن بحث نظري مجرد .

كلمة اخيرة ، وهي ان طابع « المذهب الاشراقي » المميز له هو « الثنائية » ولكن ليست ثنائية المجوس التي تقول بوجود اكثر من قوة واحدة فاعلة في العالم ، بل الثنائية الاسلامية التي تقوم على اساس ان هناك خالقا ومخلوقا لا يتحدان . وتتضح هذه الفكرة في قصة الغربة الغربية حيث ان اتصال النفس بمصدرها ليس فناء تاما في ذات الملاك حيث تنتهي قطبية الكائنين في وحدة بسيطة ، بل انه اتصال لا يلغي الهوية ولا يلزم بالاتحاد (٢٣) .

وعودة سريعة الى السبب الذي تذرع به الفقهاء لادانة السهروردي (٢٤) انه كان « ادعاء النبوة » . فالنبوة قد تتصل بالالوهية، قد تشاهدها ولكنها لا تصبح هي ذاتها . ولعل الفكرة تتضح اكثر اذا ما قارنا التهمة التي ادانت السهروردي بالتهمة التي ادانت الحلاج (٢٤٤ ـ ٣٠٩ هـ = ٨٥٨ ـ ٩٢٢ م) فالسهروردي لم يكن في «مقام» يحمله على القول : « انا الحق ». (٢٥) .

دمشق

---

(١٦) حكمة الاشراق ، ص ١٠ .
(١٧) المصدر السابق ، ص ١١ .
(١٨) المصدر السابق نفسه ، ص ١١ .

(١٩) التلويحات اللوحية والعرشية ـ للسهروردي ـ نشرة كوربان ـ التلويح الثالث ـ بحث في ترتيب الوجود .

(٢٠) راجع التلويحات في الصفحات : ٩٣ ، ١٠٨ ، ١١١ .وراجع ايضا المطارحات في الصفحات : ٤٦٣ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ .

(٢١) راجع كتاب اللمحات للسهروردي ـ مقدمة معلوف ـ حاشية ١ ـ ٢ ص ٣٨ .

(٢٢) المرجع السابق ، ص ص ٤٧ ـ ٥٣ .

(٢٣) راجع حول هذه الفكرة ايضا كتاب « المشارع والمطارحات » للسهروردي ، ص ٥٠١ .

(٢٤) البستان الجامع ـ للعماد الاصفهاني ـ ص ١٥٠ .

(٢٥) دراسة عن المنحى الشخصي لحياة الحلاج ، بقلم ماسينيون، في مجلة الله حي ، عدد رقم ٤ ، ١٩٤٥ م .